عصور - تصنيف ج- المجلد 21 / العدد01 - جويلية 2022
EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

معرف الكائن الرقمي للمقال 10.54239/2319-021-001-013 (DOI)

قراءة في منهجية الكتابة التاريخية عند مولاي بلحميسي
من خلال كتابه "الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني"

A reading in the methodology of historical writing by MoulayBelhamissi through his book "Algeria Through the Journeys of Moroccans in the Ottoman Era

د. بلعربي نورالدين*
جامعة خميس مليانة/الجزائر
n.belaribi@univ-dbkm.dz

تاريخ الإرسال: 2021/09/14 تاريخ المراجعة: 2021/09/20 تاريخ القبول:2021/11/04

الملخص:

الجزائر واحدة من البلدان العربية والإسلامية التي ساهمت في صنع الأمجاد والبطولات بقادتها وعلمائها ومصنفاتها ،ومن هؤلاء الذين ساهموا في تخليد أسمائهم في السجل الذهبي لهذه الأمة الباحث والمؤرخ مولاي بلحميسي، الذي احتل مكانة مرموقة في الجيل الثاني من المؤرخين الجزائريين، الذين برزوا خلال القرن العشرين والذين ساهموا في تحديث مفهوم التاريخ ، ودراسته وكتابته، فللرجل مجموعة من المؤلفات ومنها كتابه «الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني " الذي خصصنا له دراسة من خلال مقالنا هذا ،كما أن للمؤلف مجموعة أخرى من الكتب حيث وضع بين أيدي قرائه مجموعة من الكتب التاريخية والتي شرح من خلالها كيف ان التاريخ موضوع حي وحيوي له دور هام في ثقافة المجتمع وتكوينه ، وان الأمم لا تبنى إلا بتاريخ أبنائها. وفي مقالنا هذا توقفنا بالدراسة عند هذا الكتاب والذي من خلاله سنحاول إبراز منهج المؤرخ وأسلوبه المتبع في تأليف هذا الكتاب وطريقته في سرد

*د. بلعربي ميلود، جامعة خميس مليانة/ الجزائر

أفكار تلك الرحلات العربية والمنهج الذي اتبعه في التعريف بتلك الكتب والمادة التي احتوتها حول تلك الحقبة التاريخية والتي قام بمعالجتها في هذا الكتاب.

الكلمات المفتاحية:مولاي بلحميسي؛ الجزائر؛ رحلات؛ المغاربة؛ العثمانية؛ التاريخ؛ المصادر العربية.

Abstract :

Algeria is one of the Arab and Islamic countries that contributed to making glories and heroics with its leaders, scholars and compilations, and among those who contributed to immortalizing their names in the golden record of this nation, the distinguished scholar and historian Moulay Belhamissi, who occupied a prominent position in the second generation of Algerian historians who emerged during the twentieth century and who contributed to Modernizing the concept of history, studying and writing it.The man has a group of books, including his book "Algeria Through the Journeys of Moroccans in the Ottoman Era", which we devoted to a study through our article, and the author has another set of books where he placed in the hands of his readers a set of historical books which he explained from During it, how History is a living and vital topic that has a role in the culture and formation of society, and that nations are not built except by the history of their children.And the approach he followed in introducing those books and the material they contained about that historical period, which he dealt with in this book.

Keywords : MoulayBelhamisi; Algeria; flights; Moroccans; OttomanHistorybooks.

مقدمة:

شهدت الجزائر عبر تاريخها الطويل الكثير من العلماء الذين خلّدوا أسماءهم بالكثير من المأثورات والمؤلفات، و الباحث مولاي بلحميسي واحد من أبرز هؤلاء الذين أغنوا الساحة العلمية والثقافية. يعد من أبرز مؤرخي الجزائر في النصف الثاني من القرن العشرين، وهو شاهد حي على أحداث تلك المرحلة، وقد سطر بقلمه الكثير من أحداث الأمة خاصة خلال الفترة العثمانية، كما أنه من الشخصيات التي عايشت ألآم

الأمة خلال الحقبة الاستعمارية، و عاش أيضا المحنة التي مرّ بها الشعب الجزائري خلال الثورة، كما عاش الفترة الأولى من الاستقلال: حلوها ومرّها، وكتب عنها، لكن وجهته الأساسية في الكتابة التاريخية كانت متمثلة في موضوعاته التي تعلقت بالدرجة الأولى بالدراسات العثمانية،والتي أعطى من خلالها حقائق ووقائع لطالما أهملها مؤرخي الغرب عن قصد خدمة لمصالحه أو سعيا منهم للحط من شان هذه الأمة ،وذلك بالقيام بتزييف الكثير من الوقائع. ويكون بذلك قد فتح بابا للبحث الجاد وبخاصة للمواضيع ذات الصلة بالتاريخ العثماني، في غياب مناهج واضحة تقوده في عملية كتابته لهذه الفترة من التاريخ. فدراساته التاريخية لهذه الحقبة وفي الجزائر بالذات، قل نظيرها في العالم العربي بصفة عامة ولمغاربي بصفة خاصة، فإن دراسة مثل هذه المواضيع التي تعتني بالمناهج على غرار المنهج التاريخي لا تزال محدودة ولازالت - في نظرنا – تحتاج إلى المزيد من الاهتمام والعناية والتشجيع من قبل القائمين على البحوث والدراسات الأكاديمية.

تعدّ كتابات مولاي بلحميسي خطوة مهمة في هذا الاتجاه، فقد اهتم كثيرا بتاريخ الجزائر في العهد العثماني ممهدا لهذا النوع من الدراسات، والتي ستتضح معها الكثير من الحقائق والأحداث التاريخية المتعلقة بهذه الحقبة التي طالما أُهملت وبشكل متعمّد من لدن المدرسة التاريخية الفرنسية، أو طُمست وزُيفت أحيانا خدمة للأغراض الاستعمارية، فجاءت هذه المحاولة حتى تُمكن الباحث الجزائري من الكتابة التاريخية بنوع من الموضوعية، وعلى نهج سليم ودقيق.

ونظر للأهمية العلمية لكتابات المؤرخ، فإنني حاولت دراسة واحدة من كتبه تحت عنوان: " قراءة في منهجية الكتابة التاريخية عند مولاي بلحميسي من خلال كتابه "الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني (بلحميسي: 1981)

وفي هذه المحاولة سأتطرق بالدراسة لمنهج مولاي بلحميسي من خلال مؤلفه هذا، مستعرضا بذلك دوافع الكتابة التاريخية عنده، وأهم اتجاهاته وأرائه التاريخية وأسلوبه في تمحيص الروايات، وتوضيح نظرته إلى أهمية علم التاريخ ودوره في الحياة العامة، محاولا الكشف عن الخصائص المنهجية في الكتابة التاريخية، والإشكالات المطروحة

خاصة ما تعلق منها بمعالجة التاريخ الجزائري في العهد العثماني في طابعه الإسلامي، ومدى حياده في كتاباته وواقعيته في تتبع الأحداث.

ومن هنا جاءت إشكال الموضوع :

ما دوافع اهتمام مولاي بلحميسي بالكتابة التاريخية في العهد العثماني ؟ والى أي مدى مهد لقيام مدرسة جزائرية متخصصة في الدراسات العثمانية ؟ وما هو المنهج المتّبع في كتابه هذا؟ وما هي المصادر التي اعتمدها في دراسته لهذه الفترة ؟ وما هي الرسالة التي سعى إلى تبليغها من خلال هذا الإنجاز؟

1-التعريف بالمؤلف:

الباحث والمؤرخ مولاي بلحميسي من مواليد مدينة مازونة التابعة إداريا آنذاك لولاية غليزان، بتاريخ 17 جانفي 1930، وفي هذه المدينة الصغيرة التي اشتهرت بعلمائها كانت بداية عهده بالدراسة، وفيها ترعرع وتربى تربية دينية بين أفراد أسرته التي كانت شغوفة بالعلم(بلحميسي:1981: 80)، وكان أول ما تلقاه الطالب حفظه للقرآن الكريم الذي أعطاه ملكة وثروة لغوية هائلة. لقد كان تحفيظ القران الكريم بمثابة المناعة للجزائريين في وجه محاولات فرنسا لطمس معالم هذه الأمة من الزيغ والاستلاب، ثم تدرّج في مختلف مراحل التّعليم، وواصل دراسته بعد ذلك بالثانوية فكانت وجهته مدينة تلمسان حيث التحق بالثانوية الفرانكو إسلامية، وقضى بها مدة ست سنوات مابين سنتي(1946-1954). علما أن المرحلة الثانوية كانت مقتصرة فقط على أبناء المعمرين، ونادرا ما نجد جزائريا بها (بوضرساية :2007: 76).

عُرف عن مولاي بلحميسي الاجتهاد في دراسته؛ إذ تحصل على دبلوم المدارس بدرجة قريب من الجيد، وهي ملاحظة كان من الصّعب على أبناء الجزائر الحصول عليها. وبعد أن أكمل دراسته بتلمسان انتقل إلى العاصمة لإكمال الدراسات الجامعية حتى تحصل على شهادة الليسانس في الآداب العام 1958بتقدير جيد (بوضرساية : 2007: 78 وخدوسي واخزون2014 :350،351)، ونال شهادة عليا في الأدب من جامعة" اكس ان بروفانس" بفرنسا سنة 1963. كرّس جزءا كبيرا من حياته للتعليم والتكوين كأستاذ في التعليم الثانوي، نال شهادة الدكتوراه سنة 1972، وأكمل دراساته العليا في التاريخ، حيث تحصل على شهادة دكتوراه دولة من جامعة بوردو الفرنسية سنة 1986

بأطروحة موسومة بـ (البحارون وبحرية الجزائر في العهد العثماني 1518 - 1830) وبعدها أصبح عضوا بهيئة التّدريس بجامعة الجزائر. ،م1986)، ثم أستاذا محاضرا (1986- 2000)، وانتخب الرّاحل عضوا شرفيا بمعهد أتاتورك بأنقرة ، ونائب رئيس الجمعية الدولية لمؤرخي المتوسط.

2-إنتاجه العلمي:

ترك بلحميسي الكثير من المؤلفات التي تهدف إلى ربط جسور التّواصل بين هؤلاء المفكرين والباحثين الذين تركوا إرثا فكريا ثريا وثمينا على جيل اليوم: من الطلبة في جميع مستويات التّعليم قصد الإطلاع للاستفادة من كتاباته التي تُعد مراجع ضرورية في عملية البحث والدراسة معا.

أنجز مولاي بلحميسي أبحاثا تاريخية هامة، تناول فيها تاريخ الجزائر خاصة في الحقبة العثمانية على مدار 60 سنة من العطاء الفكري والبحث الأكاديمي، كما تخرج على يده مئات الإطارات، منهم من تقلدوا مناصب عليا في الدولة، وأشرف على عديد رسائل الماجستير والدكتوراه، داخل وخارج الجزائر.

استطاع المؤرخ أن يثري المكتبة الجزائرية والعربية، حيث ترك مؤلفات عديدة من بينها: (تاريخ مستغانم من الأصول إلى أيامنا)، الجزائر، 1982. (الأسرى الجزائريين في أوروبا المسيحية)، الجزائر 1988. (الجزائر مدينة الألف مدفع)، الجزائر 1981. (الجزائر -أوروبا الحرب السرية 1518 – 1830)، (البحر والعرب في التاريخ والأدب) (بوضرساية:2007 :81 ، بسكر2013: 395).(تاريخ مازونة من الأصول إلى أيامنا)الجزائر ،1981. (تاريخ البحرية 1516- 1830). إضافة إلى مجموعة مقالات حول تاريخ المقاومة والتاريخ العثماني خاصة تاريخ البحرية الجزائية نشرت في مجلات محلية خاصة مجلتي الأصالة والثقافة: معركة الزلاقة بالأندلس، الجوسسة في عهد الأمير عبد القادر. معركة مزغران، مدينة ورقلة في رحلة العياشي، مدينة المدية عبر العصور. الجزائر بمياهها،الجزائر ،1994 (بوضرساية:2007: 91). إضافة إلى عشرات المقالات التي نشرت في مجلات دولية؛ وبذلك يُعد الباحث بلحميسي بحق مؤرخ البحرية الجزائرية (بوضرساية : 2007 : 91). ومن بين هذه المؤلفات وقع اختياري على كتاب

(الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني)الذي نحن بصدد دراسته في هذه المحاولة.

3-دراسة الكتاب من حيث الشكل والمحتوى:

3-1 عنوان الكتاب :

(الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني) المؤلف مولاي بلحميسي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ،الطبعة الثانية ،1981.

3-2 حجم الكتاب: يضم الكتاب 208 صفحة.

3-3 محتوى الكتاب وأسلوبه: من خلال العنوان يمكن الوقوف على محتواه عموما، والذي هو مرآة عاكسة للأوضاع العامة في الجزائر خلال الحقبة الأخيرة للحكم العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي حيث تحدث فيه عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وعناصر السكان ومدنها وقوانينها ووضعيتها العلمية والثقافية.

3-4 أقسام الكتاب: قسّم الكتاب إلى قسمين رئيسيين:

***القسم الأول:** تضمّن المقدمة، وتناول فيها الرحلة من المغرب باتجاه المشرق :

تضم المقدمة صفحتين تبدأ من الصفحة السابعة إلى الصفحة الثمانية، وفيها يبرز الأهداف التي دفعته إلى تأليف هذا الكتاب، ومنها: محاولته ضرورة الاعتماد على المصادر العربية في كتابة تاريخ الجزائر لأن المصادر الغربية لم تغط كل الفترة العثمانية في الجزائر وبخاصة الإسبانية منها والإيطالية، كما أن المصادر الفرنسية سعت بطريقة أو أخرى إلى تزوير الحقائق، وتشويه تاريخ العثمانيين في الجزائر.

يشرح الكاتب طريقته في جمع مادة هذا الكتاب إذ يقول: "وطريقتنا في هذا العمل إننا بدأنا بجمع النصوص واستخراج ما يهم الجزائر . وبما أن الطبعات الحجرية أو العصرية مملوءة بالأغلاط كان التّصحيح ضروريا، وبما أن الرحلات في شكلها الأول عبارة عن جملة كان من المفيد تجزئة النّص إلى فقرات أعطيناها عنوانا يسهل القراءة والفهم ...فقد أكثرنا من الشروح ولفت نظر القارئ إلى مصادر ومراجع أخرى. وإتماما للفائدة أضفنا خرائط تبين تنقلات صاحب الرحلة والمناطق التي تجول فيها "(بلحميسي : 1981: 8)

كما يوجد ضمن القسم الأول الذي يبدأ من الصفحة الخامسة إلى الصفحة الأربعين: فبالإضافة إلى المقدمة المكونة من صفحتين سبعة وثمانية. و ابتداء من الصفحة التاسعة يشرع الباحث في الحديث عن العرب كرحالة، وعن أهم الرحلات التي كتبوها ودونوها: مغاربة كانوا أم مشارقة "وهكذا سار الكثير في الأرض واخترقوا الأفاق وتحدّوا الأهوال والأخطار فاشتهر من بينهم مغاربة ومشارقه اتجهوا كل اتجاه ضمن المواكب، أو على متن المراكب (بلحميسي:1981: 9. يوسف، نواب 1991 : 21 . الشوابكة : 2007 : 17 ، 51). ويحدد عدد هؤلاء الرحالة وما كتبوا فيه في قوله: "وإذا حددنا الموضوع على أهل شمال افريقية وجدنا عددهم يربو على العشرين وقد سجلوا ما وقع تحت أعينهم وما لفت أنظارهم وما آثار انطباعهم فوصفوا البلاد وصوروا العباد وتفانوا في جمع المعلومات الجغرافية والتاريخية والحضارية، فاستفادوا وأفادوا. ويورد شهادة الرحالة ابن زاكور الفاسي في هذا الشأن " فإن الرحلة منه من الله نحلة تكسب الغليظ الطباع غاية الرقة والانطباع وتعقب من كابد لها نصبا علما غزيرا وأدبا ..." (بلحميسي :1981: 8). وبسبب إقبال المغاربة على الرحلة تنوعت الأغراض وتعددت الموضوعات وتطور هذا الفن الأدبي كما وكيفا (بلحميسي: 1981: 10). وتنوعت موضوعات الرحلة التي شملت مختلف ميادين الحياة وعلومها : الرحلة في طلب العلم ، الرحلة الاستطلاعية، الرحلة للسفارة ، والرحلة إلى الحجاز(بلحميسي : 1981: 12).

ومن الصفحة الثالثة عشرة إلى الصفحة الثانية والعشرين يذكر أهم الشخصيات التي كانت بطلة لتلك الأسفار والتي خلدت من خلالها تاريخ الحكم العثماني في الجزائر. كما أورد لها تراجم خاصة لأصحاب تلك الرحلات (**التعليق رقم :1**) كل باسمه، ومنهم التمكروتي (**التعليق رقم 2**). العياشي (**التعليق رقم 3**)،وعن أثاره ورحلته، ثم يذكر ابن زاكور (**التعليق رقم 4**)ورحلته، ثم يأتي الحديث عن الزياني(**التعليق رقم 5**) ثم يذكر باختصار أهم محطات رحلته وكيف اتصل بالباي محمد الكبير، ثم التحق بعلماء تلمسان ،..وبعد أيام خطر له أن يزور اسطنبول مرة ثانية ...وجال في المشرق إلى أن عاد إلى الجزائر ...كما يذكر أهم مؤلفاته منها : الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب –البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف في تاريخ الدولة العلوية (بلحميسي 1981: 20، 21 ، الكتاني :2013: 283:464.).

أمّا من الصفحة الثالثة والعشرين الى الصفحة الأربعين: يذكر أهم مؤلفات هؤلاء الرحالة وما احتوته من كنوز معرفية، ومن تلك المؤلفات (النفحة المسكية) ، للتمكروتي حيث يبدي بعض النقد لهذه الرحلة في قوله: "لقد عيب على التمكروتي اقتباسه الممل بل نقله الفادح لرحلة البلوي المعروفة –بتاج المفرق-.(بلحميسي : 1981 :23). وعن رحلة "ماء الموائد " للعياشي التي خص بها الجنوب الجزائري الكبير بالوصف والتي تساعد حسب المؤلف الباحثين المعرفية حول هذه المنطقة وفيها أيضا وصف دقيق للطريق بين المغرب إلى تونس، وهو طريق الحجاج عبر " فقيق –بوسمغون – الغسول – عين ماضي – تاجمونت الأغواط -برج الغيران -سيدي خالد -بسكرة - سيدي عقبة - فتوز (بلحميسي 1981 : 25). كما يصف ركب الحجيج معتبرا أياه مدينة متنقلة بنظام ويشرف على سيرها، وراحتها وأمنها، أمير الركب وبجانبه الإمام القاضي، ويتحرك بأمتعتهم على الإبل (بلحميسي 1981 : 25). ويتحدث عن المصاعب الطبيعية التي يتعرض لها ركب الحجيج، والأمراض ومخاطر الطريق من الأعراب. أمّا عن العلاقة بين الركب والسكان فكانت طيبة يتلقى فيه الحاج المساعدة.

وفي وصفه لصحراء المغرب الأوسط يرى الباحث أن العياشي من أدرى الناس بصحراء المغرب الأوسط؛ لأنه حج ثلاث مرات "فهي أراضي متنوعة منها السهل المسترسل، ومنها الحماد والجبال ومنها الأرض الحرشة الوعرة ومنها الرمال الكثيفة التي يحار فيها النظر...إلى أن يقول بلد كاد الطعام أن يكون به دواء" (بلحميسي 1981 : 26). وعن الحياة السياسية يقول العياشي: "إن أجزاء كبيرة من البلاد كانت مستقلة لا تخضع للوجود العثماني بل هي تحت تصرف أمراء محليين "(بلحميسي 1981 : 28) وحدود النفوذ التركي في الجنوب الكبير حيث يستند المؤلف عن رواية العياشي بقوله "وبناء على هذه المعلومات فإننا نلاحظ أن المد التركي قد وصل عسكريا إلى بسكرة، وروحيا إلى وار قلة" (بلحميسي 1981 : 29).

كما يورد رواية العياشي عن الحياة الاقتصادية بصفة مفصلة، فيتحدث عن الأسواق المكتظة بالقوافل المتجهة كل الاتجاهات المتنقلة بأنواع البضائع والسلع، مستشهدا برواية العياشي عن الرخاء الذي عرفته المنطقة "الذهب فيها ارخص وكذا سعر القوت من الزرع " (بلحميسي 1981 : 29). وعن الموازين والعملات والتفاوت في

الأسعار من مدينة لأخرى، وعن أهم المنتجات التي يتاجر بها إضافة المحصول الأساسي ألا وهو التمر، يوجد الزيتون والكتان وحناء والفواكه والخضر والبقول واللحوم والسمن والقمح والدواب .

وعن الحياة الثقافية يتحدث عن زوايا الصحراء وتحول بعضها إلى مدن مثل عين ماضي وتماسين وطلقة، إضافة إلى الأضرحة والمزارات التي خلدت ذكرى الأولياء والصلحاء والعلماء والعلوم المنتشرة وعن بعض العادات في الأعياد والمناسبات وأن الصفة التي كانت تجمع أهل الجنوب هي الكرم والإسلام(بلحميسي 1981: 30، 31)

وفي رحلة ابن زاكور "نشر أزاهير البستان " والتي هي صورة حية ومفصلة للحياة العلمية في الجزائر حسب رأي الكاتب، وهي بذلك أيضا حسب رأيه جواب داحض للافتراءات الغربية عن الجزائر، إذ يرى الأستاذ أن معظم مؤلفات الغربيين كانت تسيء للجزائر "الجزائر عش اللصوصية " إلى أن يقول: "فهذا شيلر ينفي وجود العلم والتعليم في الجزائر" (بلحميسي 1981: 31) ومن هنا جاءت رحلة ابن زاكور لتؤكد ازدهار الحياة العلمية بالعاصمة وفي غيرها من الحواضر الجزائرية، وأن العاصمة كانت قبلة للعلم تُشد إليها الرحال، كما يسدي ابن زاكور نقلا عن المؤلف أسماء بعض المشايخ والعلماء وقائمة الكتب التي كانت تُدرّس مثل ألفية العراقي وصحيح البخاري وكتب أخرى في الحديث والفقه والسيرة وقواعد اللغة العربية وآدابها ...والتي تشمل حسب الكاتب جملة من العلوم العقلية والنّقلية: من منطق وحساب ونحو وعروض وصرف وتوحيد وفقه وكل فن كان شرطا مطلوبا في العال (بلحميسي 1981: 33).

وعن طرق التدريس وملازمة الطالب لشيخه لمدة طويلة، وكيف يكون ختم كتاب القرآن فرصة احتفال كبير تُتلى فيها الأشعار، وتعمه البركات. أما عن الإجازات يذكر المؤلف أنها "هي مقابل الشهادات الجامعية وشهادات الكفاءة التي تؤهل حاملها لتدريس الفقه والمنطق ...وتخوله حق الرواية، ثم يُعطي الكاتب وصفا دقيقا عن كيفية صياغة الإجازة العلمية(**تعليق رقم 6).** ويخلص الكاتب إلى القول:" فإن كان الغربيون قد ركزوا في كتبهم عن الجزائر على الحديث حول الحكام الأتراك وسياستهم فان ابن زاكور وأمثاله–وصفوا وقيدوا– بدون أي مركب – استمرارية العروبة في هذا البلد .(بلحميسي 1981: 29).

الترجمانة الكبرى للزياني الذي نزل بوهران ثم انتقل إلى تلمسان ثم إلى مدينة الجزائر، وبعدها رحل إلى تونس، وفي طريق عودته مر المدن نفسها، وكانت لرحلته فوائد إخبارية متنوعة ومتعددة حيث تحدث الزياني عن فترة حكم محمد الكبير وعن علاقته بالمغرب الأقصى كما تحدث عن مدينة تلمسان وعن الكتب النادرة التي وجدت بها والتي تحدث عنها ابن خلدون وعن تاريخها الذي خصص له الزيان حسب إفادة المؤلف وعن أهم المصادر التي اعتمدها ومنها مؤلفات ابن خلدون (بلحميسي 1981: 37).

تحدث المؤلف في رواية الزياني عن مدينة الجزائر التي أقام بها أربعة وعشرين يوما، وهو في طريق عودته إلى موطنه استغرق سبعة أشهر قبل عودته إلى موطنه، وهنا تُلَاحظ الأمانة العلمية مرة أخرى لبلحميسي حيث يورد فقرات من الرحلة الزيانية في وصف مدينة الجزائر. وعن قسنطينة وحكامها والمحن التي تعرض لها حسان باي ووصف عن حالة البلاد خاصة حالة الوباء وفناء الكثير من الخلق " وكان عاما في العمائر التي بينها (تلمسان) وبين الجزائر .فما نزلنا منزلا إلا وجدنا أهله يدفنون موتاهم"ويفسر بلحميسي ذلك بالثورات المحلية على النظام التركي (بلحميسي 1981: 40)

أما في القسم الثاني من الكتاب والذي يبدأ من الصفحة الإحدى والأربعين الى الصفحة مائة وخمسة وتسعين والذي خصّصه إلى الرحلة نحو المشرق (العودة منه): وفيه اهتم بوصف خط الرحلة واصفا المدن التي عبروها معتمدا في كل ذلك على كتب الرحلات التي ذكرت سالفا عارضا أهم المصادر العربية والفرنسية التي اعتمدها في كتابه هذا، والتي كانت متنوعة وغزيرة المادة التاريخية وكانت البداية بالنفحة المسكية لابن عبد ربه والتي كانت بدايتها ذاكرا أهم المدن التي عبرها ومنها هنين فوهران التي حلّ بها النصارى فمستغانم وتنس والجزائر، دلس، بجاية، ويصف ضريح أبي مدين شعيب ومدينة بجاية وكيف كانت دار علم وعمل ومستقر العلماء والصالحين، ويُسهب في وصف المدينة كحاضرة من حواضر الجزائر وعن القل يورد المؤلف على لسان صاحب النفحة " ثم دخلنا مرسى القل، وهو مرسى مليح مستكن من الريح ثم سافرنا إلى بونة التي هي مرفأ هام تكثر بها الغلال والثمار "وبونة مدينة مكينة وقلعة حصينة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع (بلحميسي 1981: 40).

ابتداء من الصفحة الثالثة والستين يشرع المؤلف في إعطاء ما احتوته رحلة(ماء الموائد)، والتي كانت بدايتها سجلماسة. والطريق الذي سلكه صاحب الرحلة عبر الصحراء وصولا إلى وادي غير فبني عباس فواحات توات معطيا وصفا دقيقا لهذه الواحات نقلا عن مؤلف الرحلة ثم يسرد أهم ما صادفه من عادات وعوائد في الحياة العامة والاقتصاد والأولياء والأضرحة التي زارها في طريقه وصولا إلى مدينة القليعة فزرالدة وعن نوعية المياه التي كان يشربها الحجيج والتي أعطى صاحب الرحلة بعض مواصفاتها العالية والجيدة(بلحميسي 1981 :53،54)، ثم وصولا إلى ورقلة وتماسين وهي بلدة كثيرة العمارة والنخيل وكرم الضيافة بها، ثم تقرت ثم يبدأ في وصف طريق العودة من توزر إلى نفطه فسيدي عقبة ثم بسكرة وصولا إلى أولاد جلال والاغواط الغسول وبوسمغون وأخر محطة ذكرها الكاتب في هذه الرحلة هي فقيق ((بلحميسي 1981 : 54 ، الوزان ج 2: 125 وما بعدها).

وقد تحدث أيضا وبنوع من الإسهاب عن رحلة ابن زاكور والتي خصصها لمدينة الجزائر وعلمائها وأخبارهم مثل الشيخ المنجلاتي، ومحمد بن عبد المؤمن وابن زاكور، ويورد نصوصا لأهم الإجازات والرسائل المتبادلة بين هؤلاء العلماء، وكيف هاجم النصارى مدينة الجزائر، وكيف عايش الزياني ذلك الحدث الأليم سنة 1683بقيادة دوكيس في عهد الملك لويس الرابع عشر الذي صرح أكثر من مرة مدينة الجزائر إذ يقول: "ابن زاكور في هذا الشأن " التخ أمرها ، وغص بسفائن النصارى بحرها فزلزلوا قصورهم النواضر ، بصواعق أمثال القناطر "(بلحميسي 1981 :105، 112) ثم يختمها بإفادة روايته عند مغادرة مدينة الجزائر بعدما أصابها ما أصابها إذ يقول: "ثم امتطيت للنوى، عن ذلك المأوى ...وحصل من الوجد عند فراق تلك الجزيرة، ما لم يحصل لمغيث إذ فارقته بريرة (بلحميسي 1981: 145، 147).

وعن رحلة الزياني والتي خصصها لمدينتي وهران وتلمسان علما أن الزياني كان من رجال السلطة المقربين من السلطان وكيف استقبله الباي.

وعن رحلته إلى تونس انطلاقا من قسنطينة ووصفه مسجد كتشاوة الذي بناه حسن باشا وتحرير مدينة وهران (بلحميسي 1981 :151، 194).

وفي الأخير يورد الكاتب قائمة المصادر والمراجع التي اعتمد عليه في تأليف كتابه هذا تأكيدا للحقيقة وإكمال ما هو ناقص منها، وهي متنوعة وغنية منها ما هو مؤلف بالغة العربية (بلحميسي 1981 :198 : 199). وهي من أمهات الكتب التي مثلت ركيزة أساسية في صدور هذا المؤلف وإخراجه في حلته البهية هذه. إنه التنوع الفكري والعقائدي، والطرح المتنوع الذي ابتغاه الكاتب في مؤلفه هذا، ثم يورد فهرس الكتاب مقسما إلى قسين أساسيين من الصفحة مائتين وواحد إلى الصفحة مائتين وستة.

4-المنهج المتبع في هذا الكتاب:

ومن خلال قراءة متمعنة للحياة الثقافية للرجل تبين أنه كان يجيد الكثير من اللغات، فبالإضافة إلى اللغة العربية التي هي لغته الأم والتي تمرس على نطقها وكتابتها والتأليف بها، وهي بذلك حال لسانه في الوطن وخارجه فانه عرف عن الرجل إتقانه للغة التركية والاسبانية والايطالية والفرنسية، وهذا بحكم عيشه ولفترة طويلة في المهجر وبالذات في أوروبا طلبا للدراسة، في وقت كان العالم خلالها يشهد انقلابا تاريخيا، مكنته هذه الوضعية من أن يكتسب ثروة لغوية وفكرية وظفها في عملية التأليف التي يلتمسها القارئ لهذا الكاتب والذي من خلال قراءة متأنية في ثناياه يمكن الخروج بجملة من الملاحظات عن منهجيته في كتابته لهذا المؤلَّف يمكن تلخيصها كالآتي :

إن الدّارس المتمعن في ثنايا كتاب "الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني" يجد انه اتبع منهجا علميا دقيقا بعيد عن افتراءات الكتاب الأوربيين الذين سعوا إلى تشويه الحقائق مكذبا الادعاءات الأوربية والتي مفاده" إن تاريخ الجزائر في العهد العثماني يجب أن يعتمد إطلاقا على المصادر الأوربية " (بلحميسي 1981 : 8) فقد أودع في هذا الكتاب كل ما التقطه من الفرائد ودون فيه جميع ما وقف عليه من الشوارد، فما من حكم آتى به إلا وله في تاريخ تلك الرحلات جذر مكين، أو فائدة أثبتها إلا ولها من الواقع سند متين، وسلك طوال هذا التصنيف المنهجية الحديثة في بحث تلك المصادر العربية الأصيلة متعقبا المستندات المخطوطة ناشدا الحقيقة من خلالها إذ يقول في هذا الشأن: "فلابد من الالتفاف إلى المصادر العربية، والبحث عنها أينما كانت "(بلحميسي 1981: 7).

ولما كان حريصا على نشدان الحقيقة التاريخية قام بصياغة الوقائع تارة صياغة التأكيد متى رأى أن الكلام عنها لا يستدعي نقضا، لقيامه على أساس ثابت ،أو روايتها تارة أخرى بعبارات الاحتمال آو بأدواته معتمدا في ذلك كله على أدب الرحلات العربية التي هي تصوير حي نستعيد من خلاله بناء الحقيقة المنشودة "فالرحلات من المصادر المساعدة للتاريخ وهي بمثابة الشريط السينمائي يصور منظرا آو يلتقط حدثا "(بلحميسي 1981: 8). متى ظهر أن الأمر محتاج إلى تعمق واستبطان وأن العناصر الضرورية مفقودة الحلقات، وقد ربأ بنفسه وقلمه الذي ليس منزها عن السبق والفلتات أن يقع في موطن الزلل، وبذل أقصى الجهد في وصل المنفصل ورد الفروع إلى الأصول، وتعليل المتناقض وتدعيم المتلاشي، وقياس الأشباه بالنظائر دون أطناب ممل ولا إيجاز مخل، كل ذلك بالاعتماد على شهادات الرحالة العرب بعد تصحيحها وتمحيصها "وطريقتنا في هذا العمل أننا بدأنا بجمع النصوص واستخراج ما يهم الجزائر .وبما أن الطبعات الحجرية أو العصرية مملوءة بالأغلاط كان التصحيح ضروريا ..."، (بلحميسي 1981: 8). وبذلك حاول الابتعاد قدر الإمكان عن الكلام المجاني وأضرب عن الأحكام الجزافية فلم يحفل إلا قليلا بالمقولات المنطلقة من فيض الشعور المصطبغة بفيض الحماسة ولكنه عني كل العناية بالدراسات المنهجية العقلانية المستندة إلى نصوص تلك الرحلات العربية معتمدا أسلوب التحقيق والمقارنة. ونشدان الحقيقة إذ لم يعتمد على رحلة واحدة بل عمل بمبدأ التنويع "فاخترنا أربعا لشخصيات من المغرب الأقصى تحدثوا عن بلادنا بعد أن زاروها وأقاموا بها مدة خولت لهم حق الكتابة .وأضافوا إلى الدراية النزاهة والإعجاب أحيانا" (بلحميسي 1981: 8) .

وجها القارئ إلى مصادر ومراجع أخرى أوربية وعربية التي اعتمدها في التحقيق أو المقارنة أو لإثراء النص. وبذلك يكون الباحث قد ألجم عقله بلجام الحقيقة التاريخية المجردة، وحيث استفاد في مؤلفه هذا واستعان بما كتبه قدامى المؤلفين عن أوضاع البلاد في تلك الفترة ممن صوروا العباد وتفانوا في جمع المعلومات الجغرافية والتاريخية والحضارية (بلحميسي 1981 : 123). فالرحلة العلمية عملت على وصف البلدان وصفا دقيقا فهاهو حسَن الوزان يتفنن في كتابه (وصف إفريقيا) .ومكّن السفر والتنقل في

المغرب رحالتنا من كتابة ما شاهد وما سمع وما استنتج. وجعل الكلّ في (وصف إفريقيا) "(بلحميسي 1981: 8).

اتسم منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخ "مولاي بلحميسي" بالطابع التجديدي الذي جمع فيه بين السرد الوصفي والتحليل ومناقشة الأحداث مع الدقة في تحري الحقائق، بالإضافة إلى كونه يمتلك وثائق مخطوطة ومطلع حاذق فيم توصل إليه مختلف المؤرخين لاسيما الغربيين، وبحكم تكوينه فان تأثره بالمدرسة الغربية بادي للعيان في مؤلفه هذا. الأمر الذي أهلّه لآن تكون له لمسات تحديثية تختلف عن الكتابات الغربية بناء على ما تلقاه من تكوين أكاديمي وما يتمتع به من رجاحة العقل، ومع ذلك فانه يستعين في بعض الإشكالات التاريخية على المنهجية الغربية في الكتابة التاريخية كلما استدعى الموقف ذلك دون أن يتخلى عن هويته الإسلامية ،وهذا ما يدل على جمعه بين القيم العربية الإسلامية للثقافة الجزائرية وتقنيات الكتابة العصرية الغربية وهذا ما نلمسه في هذا المنهج.

وحتى لا يقطع حبل التفكير على المطالع والمراجع، أتى في أسفل كل صفحة بما يناسبها من هوامش وتعاليق حتى تتصل سلسلة الرواية والسند اتصالا وثيقا سدا للثغرات، وما أكثرها في تاريخ المغرب الإسلامي عامة والجزائر خاصة"فقد أكثرنا من التقاييد والشروح، ولفت نظر القارئ إلى مصادر ومراجع أخرى"(بلحميسي 1981: 8) والحق أن الكاتب قد تقيد بالوحدة الزمنية المنشودة من خلال العنوان حيث ركز عن هذه الفترة فترة الحكم العثماني في الجزائر، فلم يتقيد بها تقيّدا مطلقا إشفاقا منه على أن لا تضيع شوارد ما تحصل عليه إلا بعلم وبجهد وعناء أثبته لارتباطها بأغراض الكتابة العلمية على أنه أولى اهتماما خاصا في هاته المصنفة المستخلصة مما عنده من روايات مرتبة زمنيا ومكانيا وموضوعيا لما يسمى أدبيات الرحلة والتاريخ الذي نعلم أنه من صنع البشر، فمتى وقف على ما فعله الإنسان في بلاد المغارب عرف الاتجاه الذي سلكه تلك هي منهجيته، وهذه هي سبيله الذي تمحور حول النص، ثم اعتمادا على التحليل والتركيب، حتى يكون للدراسة طابع مركز وموضوعي سليم وتنتفي منها عوامل الزلق معتمدا على :

4-1مبدأ الشمول : الذي هو من خصائص أدب الرحلات، فقد دأب على الاستقراء والاستقصاء في بطون الكتب العربية والأعجمية الوطنية والأجنبية ما استطاع إلى ذلك سبيلا، تنقيبا عن الوقائع والأحداث، ولم يكتف في ذلك بما وجده عند الغربيين الذين لطالما أهملوا جوانب كثيرة في كتاباتهم"وقد ركزوا اهتمامهم على ماله علاقة بانشغالاتهم آنذاك وتركوا البقية "(بلحميسي 1981: 11). والواقع أن ما قام به الغربيون خاصة الفرنسيون هو ليس مجرد إهمال بل توجيه للكتابة لخدمة الأغراض الاستعمارية في تلك الفترة،وتحقيقا لنظرية التفوق الحضاري الغربي،كل ذلك لتبرير الفعل الاستعماري. ولم يغفل مولاي بلحميسي عن ذكر ذلك في الكثير من مؤلفاته بل طلب الحقيقة في رفوف المكتبات والوثائق، واستشهد بما في الجميع من إفادات تعرف بطبائع الإنسان وعاداته، تتناول أحوال الهيأة الاجتماعية ووضعية الأفراد والجماعات ونظرة الكل إلى شؤون الحياة اقتصادية، تبين الطرائق التي اتخذها الإنسان لكسب الرزق فأحسن اختيارها أو أساء انتهاجها أو إدارية وسياسية تصف مسلك أولى الحل والعقد في رتق ما أنفتق أو توجيه الأحداث أو دبلوماسية، وتوضح إلى أي مدى بلغت المفاوضة أو المجابهة بين سلطة داخلية ودول خارجية لتغيير مجرى الوقائع أو البحث عن الوئام والتعايش. واقتطف من تلك الرحلات كل ما له صلة أكيدة بالتاريخ والحضارة صيانة للمقومات والمعتقدات، مستعينا في هذا الأسلوب بقواعد منطقية تقدم المتن وتأخذ منه وجه الشاهد، وتركن إلى شيء من التمحيص والتقليب لمعرفة مميزات الوثيقة القديمة.

وقد خرج المؤلف بملاحظة دقيقة عن التأليف العربية على أنها شحيحة بالمقارنة مع ما كتبه الغربيون "أما المصادر العربية فهي قليلة لا تستطيع أن تنافس أو تزاحم التأليف الأوربية الخاصة بالجزائر في العصر العثماني "(بلحميسي 1981: 8) مع ذلك يرى في الرحلات المغربية أهمية قصوى في تدوين تاريخ تلك المرحلة إذ يقول: "ولهذا كله زاد دور الرحلات المغربية لما فيها من أخبار أو إشارات حول المدن والتّل والصحراء والقبائل والتجارة ". (بلحميسي 1981: 14). وعن شمولية الرحلات المختارة يقول المؤلف: "فرحلة التمكروتي كانت في أواخر القرن السادس عشر تلقي أضواء عن الصحراء الجزائرية وواحاتها وطرقها ...ولرحلة ابن زاكور الفضل في وصف الحياة الثقافية ونشاط التعليم ...ويعرفنا الزياني في أواخر القرن الثامن عشر بالتّل ومدنه

وبمكانة تلمسان والجزائر وقسنطينة وبمنزلة محمد الكبير باي وهران والداي حسين وبالحالة الاجتماعية ..."" (بلحميسي 1981: 14).

2-4 المنهج المقارن: أي مقارنة رحلات المغاربة بنظيراتها الغربية رغم ما فيها من الشطط واللغط أحيانا إلا أنها لا تخلوا أحيانا أخرى من الحقيقة خاصة إنْ أحسن استغلالها "وما من شك أننا نجد فيها الكثير مما يساعد على تتبع الحوادث أو تصور الحقائق غير أن نظرة الغربيين وتحليلهم يصيب ويخطئ" (بلحميسي 1981: 14) . ويقول أيضا في هذا الشأن"ما أكثر ما زعم الأوربيون" (بلحميسي 1981: 07) .

لقد ولدت التّطورات الحديثة على المستوى العالمي نظرة جديدة إلى التاريخ ،فهي نظرة فيها وجهة عالمية حين تؤكد على أهمية الحضارات الأخرى خاصة الحضارة الغربية، وحين تشير إلى اشتباك الحضارات وتبادل التأثير والتأثر فيما بينها وهي موضوعية حين تؤكد أهمية تاريخ الأمة من وجهتها الخاصة إلى جانب النظر في التطورات العامة، وبهذا نتبين كتابة تواريخ بعض البلدان من جديد بصورة تتصل باتجاه الوعي الجديد فيها وتساعد على فهم نهضتها، وهذا يضع المسئولية الأولى من كتابة التاريخ لأي شعب على مؤرخيه إن أريد أن يفهم بصورة سليمة. من هنا ينطلق المؤلف إذ يرى في مؤرخي الغرب أنهم عملوا على تشويه تاريخ الجزائر، " وهي النزعة السائدة لدى مؤرخي الغرب عامة والتي تميزها الكراهية اتجاه هذا القطر وأبنائه، وقد ملأ كتبهم الجو المعادي والموقف المعاكس لكثرة الأزمات، وتوتر العلاقات بين الجزائر ومعظم الأمم الأوربية أدت إلى حروب ضارية حتى أصبح العصر عصر عداء وحقد ووعيد وتهديد، صب في كتب التاريخ ودبت السموم في صفحاتها والمرارة بين سطورها فتراكمت الأفكار المسبقة والنوايا المغرضة، ومال أصحابها إلى الشتم والازدراء والاستفزاز والاحتقار"(بلحميسي 1981: 15). كل ذلك بهدف إعداد الرأي العام الغربي للانتقام .

ثم يستطرد قائلا فالعاصمة في مؤلفاتهم "حجر اللصوص وعش الصعاليك وجحيم النصارى وجمهورية قطاع الطرق " (بلحميسي 1981: 14). ويرى المؤلف أن اكبر خطا ارتكبه هؤلاء الكتاب هو احتقارهم المصادر الإسلامية العربية منها والعثمانية، بدعوى أنها غير مجدية أو في حاجة إلى الدقة، أوانها تفسح المجال واسعا للافتراض. لذا كان اهتمام الباحث مولاي بلحميسي بالنصوص العربية التاريخية والجغرافية والأدبية

الذي عمل على استعمالها، وفهم دقائقها وصيغها وصورها وعبقريته"(بلحميسي 1981: 8). إذ يرى أنها مناسبة للرّد على الشكوك والزيغ الذي رسمته المصادر الغربية وألصقته عن قصد أو غير قصد بتاريخ هذه البلاد. " (بلحميسي : موقف المؤرخين الفرنسيين من الجزائر في العهد العثماني ، السنة 1988/1408السنة الثالثة ، ص 102) .وما خصصوه لهذه البلاد في رحلاتهم جدير بأن يجمع ويدرس ويحلل ويقارن بما في رحلات الأوربيين المعاصرين لهم، وهكذا يكون التكامل النافع"(بلحميسي : موقف المؤرخين الفرنسيين من الجزائر في العهد العثماني ، السنة 1988/1408السنة الثالثة، ص ص 102،103) .

ويقول أيضا في شان المقارنة بين المصادر الغربية والمصادر العربية "ولذا فالمصادر الاسبانية والفرنسية والايطالية - مهما كانت كثرتها ومهما كان ثناء الكثير عليها – ظهرت في الواقع غير كافية للاطلاع على أحوال البلاد وكتابة تاريخها في العصور الحديثة " "(بلحميسي : 1988/1408 ،103). وبمقارنتها بالنصوص العربية يقول وعن مدى أهميتها: " فلابد من الالتفاف إلى المصادر العربية، والبحث عنها أينما كانت والتخلي عن نظرة الغربيين إليها واستخدامها استخداما موضوعيا يعتبر من أولويات الباحثين "(بلحميسي 1981: 106).

وحتى نستشهد على بعض أوجه المقارنة التي احتواها الكتاب، نورد المقارنة التالية وفي رحلة ابن زاكور (نشر أزاهير البستان) والتي هي صورة حية ومفصلة للحياة العلمية في الجزائر حسب رأي الكاتب، وهي بذلك أيضا حسب رأيه جواب داحض للافتراءات الغربية عن الجزائر إذ يرى الباحث أن معظم مؤلفات الغربيين كانت تسيء للجزائر "الجزائر عش اللصوصية "إلى أن يقول: "فهذا شيلر ينفي وجود العلم والتعليم في الجزائر"(بلحميسي 1981: 8). ومن هنا جاءت رحلة ابن زاكور لتأكيد ازدهار الحياة العلمية بالعاصمة وفي غيرها من الحواضر الجزائرية، وأن العاصمة كانت قبلة للعلم تُشد إليها الرحال، كما يسدي ابن زاكور نقلا عن المؤلف أسماء بعض المشايخ والعلماء وقائمة الكتب التي كانت تدرس مثل ألفية العراقي وصحيح البخاري، وكتب أخرى في الحديث والفقه والسيرة وقواعد اللغة العربية وآدابها ...والتي تشمل حسب الكاتب جملة من العلوم العقلية والنقلية من منطق وحساب ونحو وعروض وصرف وتوحيد وفقه وكل فن كان شرطا مطلوبا في العالم"(بلحميسي 1981: 7).

وعن ضرورة الاعتماد على المصادر الغربية رغم ما تحمله من أغلاط وشطط وتزييف، يقول: "غير أن ما أبديناه من انتقادات وملاحظات وتحفظات ليس معناه رمي هذا الإنتاج الضخم في سلة المهملات. فهناك قسم لا يستغنى عنه أبدا. ففي كتبهم شهادات وأوصاف دقيقة وتواريخ مضبوطة وإحصاءات وقوائم الحكام وتحليلات لحوادث خطيرة، وتقارير وتفاصيل لا نجدها في غير هذه الكتب."(بلحميسي 1981: 8).

3-4 المنهج الوصفي :

لأن موضوع الدراسة يتطلب ذلك فموضوع الكتاب شامل لمختلف الميادين وجوانب الحياة المختلفة، حيث نرى في ثنايا هذا الكتاب وصفا دقيقا لأوضاع الأمة الجزائرية وللحالة التي كانت تعيشها خلال هذه الفترة، ماء الموائد هو وصف دقيق " لطريق الصحراء والسكان والعوائد وأحوال المعاش والأمن والحديث عن العلماء والدين وأتعاب المسافرين "(بلحميسي 1981: 31). ففي الصفحة الثلاثة والعشرين، وفي أسطر مقتضبة يختصر مكونات الطريق الساحلي حسب التمكروتي من مدن وقرى وموانئ وأرياف "ورد جميع أسماء المدن الحالية ماعدا البعض القليل، وكانت عبارة عن حصون معززة تحيط بها أسوار دفاعية، والعمران بها موجود وكذلك الزرع والفواكه (بلحميسي 1981: 33). وفيه أيضا وصف دقيق للعاصمة إذ يقول عنها التمكروتي: "فهي كثيرة الأسواق والسلع والكتب والطلبة والسفن والجند ...أفضل من جميع بلاد افريقية وأعمر وكانت تدعى إسطنبول الصغرى" (بلحميسي : موقف المؤرخين الفرنسيين من الجزائر في العهد العثماني، السنة 1988/1408السنة الثالثة، ص 107) .

4-4 الأخذ عن الثقاة:

كان الباحث في سعيه الدءوب من أجل الوصول إلى الحقيقة يحرص على نقلها من مصادرها، إما من الطبقة المقربة من قادة الدولة العثمانية من دايات وبايات والقادة العسكريون أو من الطبقات الاجتماعية المرموقة التي لم تكن لتتزلف بسبب هذه المكانة، ومن أناس لهم باع في اللغة العربية لم يعجزهم لسانهم عن التعبير عن الحقيقة كما أسلفنا سابقا من الذين عايشوا محن الأمة وأفراحها، أو من هؤلاء الذين تعايشوا مع عامة الشعب والذين كان بلحميسي يثق فيهم يفضل تسميتهم - أصحاب الرحلات- التي نقدمها في هذا الكتاب من أهل العلم والمعرفة، والإطلاع على ماضي المغرب الأوسط

وحاضره، وينتمون إلى طبقة اجتماعية عالية ويحظون بمكانة مرموقة مكنتهم من ربط علاقات ودية متينة مع حكام المغرب الأوسط وعلمائه وأمرائه. وهم عرب لا يوقفهم حاجز اللغة مثل ما وقع للأوربيين الذين قدموا إلى الجزائر في ذلك العصر ولا يورطهم عامل اللسان في الأغلاط والأخطاء "(بلحمسي: 1981 :18). خصوصا إذا علمنا أن هؤلاء الرحالة كانوا على صلة مباشرة بهؤلاء وهؤلاء كانوا في دواليب صنع القرار وكان يعرفون ويطلعون على الكثير من الإسرار بحكم هذه العلاقة وبحكم تعاملهم ولكونهم كانوا شركاء. كل ذلك أهلهم للحصول على الحقيقة رغم أنه في الكثير من الأحيان كانوا لا يجاهرون بها خوفا من السلطة التي لم تكن لترحمهم، ومن ثم فهم من الثقاة الذين يمكن الأخذ عنهم، وتأكيدا لثقته بهم يقول: "وهم مسلمون إذن بعيدون كل البعد عن الأفكار المسبقة والنوايا السيئة بل تحلوا بالنزاهة وترفعوا عن الحزازة" (بلحمسي: 1981 :23). إن موضوعية مولاي بلحميسي في الكثير من جوانب كتابه، وذلك باعتماده أسلوب الوصف والتحليل والتعليل أحيانا في نقل الصور واللوحات الحية عن أوضاع الأمة، كل ذلك يجعل منه لبنة في صرح مدرسة تاريخية قس طور النشأة ومن مؤسسي مدرسة تاريخ الجزائر في العهد العثماني.

4-5 إضافة إلى الاستعانة ببعض وسائل الإيضاح ومنها بعض الصور منها صور بعض المساجد كمسجد الجامع الكبير"(بلحمسي: 1981 :24). كتشاوة بعد تحويله إلى كنيسة كما يورد الوصف الدقيق لثنايا المسجد الذي أورده الزياني، وكأنه لوحة ناطقة تحكي قسمات وثنايا زواياه (بلحمسي: 1981 :14). ومسجد أبي مدين بتلمسان67 كما أورد الكاتب صورا لبعض صفحات تلك الرحلات التي اعتمد عليها في كتابه هذا، منها صورة الصفحة الأولى من كتاب النفحة المسكية للتمكروتي، ثم صفحتان من نفس الرحلة "(بلحمسي: 1981 :60). وصفحة من رحلة العياشي"(بلحمسي: 1981 :190)..إضافة إلى مجموعة من الخرائط لتوضيح المسالك والدروب التي قطعها هؤلاء الرحالة "وإتماما للفائدة أضفنا خرائط تبين تنقلات صاحب الرحلة والمناطق التي تجول بها ""(بلحمسي: 1981 :229).

ومن هنا فكتابه من الآثار العلمية، التي رسمت لوحة صادقة عن أوضاع الأمة خلال العهد العثماني، وأعطت صورة صادقة عما وقع، وعن حقيقة الأوربيين المتربصين

بدار الجهاد، واليهود ودورهم في صنع مأساة الأمة الجزائرية رغم أنهم كانوا يعيشون بين جنباتنا. إنها دناءة هؤلاء ومقتهم الذي لا نستطيع أن نجد له وصفا إلا كما صورها القرآن الكريم، ومن ثم تحالف علينا وتداعى علينا اليهود والنصارى، ووقع المحظور الذي كان بإمكان الأمة أن تتجنبه لو تمسكت بدينها.

خاتمة:

يعدّ مولاي بلحميسي من المؤرخين الأوائل في جزائر الاستقلال، والذين اهتموا في كتاباتهم التاريخية بالفترة العثمانية، وتعتبر كتاباته مراجع أساسية لكتابة تاريخ هذه الفترة لما تتميز به من تشعب في مواضيعها، فقد فتحت مجالات متنوعة للبحث والتنقيب .مع ضرورة الالتفاف إلى المصادر العربية ،دون إهمال المصادر الغربية ،والتي ورغم ما حملته من لغط وتلفيق ،فان نصيحته عند التعامل مع تلك المصادر، أن تكون لقارئها النظرة النقدية في استقراء النصوص التاريخية. مع الأخذ بمبدأ الشك في ما يذهب إليه روادها حيث وفي كل مرة نجد بلحميسي عندما يتحدث عن المصادر الغربية يستعمل عبارة "ما أكثر ما زعم الأوربيون"

أسلوبه العلمي في هذا المؤلَف فيه الكثير من الجهد في انتقاء المادة وجمعها، هو لا يتحدث عن أشخاص بل عن فترة مرت بها الأمة ويخلص إلى معيار، يعتبر فارقا بين الشعوب ،أنه معيار الحضارة التي لطالما رفعها المستعمر كشعار لتبرير ممارساته والتي من خلالها عمل على إقبارها في البلاد المستعمَرة، وكتاب بلحميسي محاولة لإظهار تلك الحقيقة التي عمل الاستعمار على إخفائها،فهو تاريخ شامل وعام، ونابع عن إنسان بسيط من عامة وصلب هذه الأمة إذ يقول فولتير الذي انتقد تاريخ القرن الثامن عشر حين قال " في كل ما قرأت لم أجد سوى تاريخ الملوك والقادة العسكريين وأنا كلي شوق لمعرفة تاريخ الناس، كلّ الناس ".

ومما يجدر به الذكر أن تراثنا المخطوط لازال مجهولا بحكم الواقع الإحصائي، وذلك لأن إحصاء ما نشر من تراثنا – محققا أو بدون تحقيق – ومقارنته بما لم يزل مخطوطا، وبما ضاع مع الزمان يدل على أن نسبة المنشور المعلوم من التراث لا يمثل إلا

القليل من التراث الوطني ، فالجانب الأعظم من تراثنا مجهول؛ لأنه رهين النّسخ الخطية الحبيسة في خزينة المخطوطات ببلدان الشرق والغرب والمكتبات الخاصة كالزوايا. وعلى الرغم من الجهود الكبيرة الذي بذلها الباحث في هذا الشأن من عملية تحقيق وتقصي لتلك الرحلات وسعيه للاستعانة بها كبديل عن المصادر الغربية في كتابة تاريخ الجزائر ،إلا أن هذا المجال لازال بكرا ومازال نهما للمزيد من الدراسات .فكم من الوثائق العربية والمخطوطات التي تقدر بالآلاف لا تزال حبيسة النسيان في غياهب المكتبات والزوايا تنتظر من يخرجها الى النور، من ثم جاءت محاولة الأستاذ بلحميسي لعلها تكون بادرة خير للإفراج على تلك الكنوز. التي قد تكون فاتحة لبحوث متخصصة في هذا المجال وقد تعطي دفعا وتشجيع للباحثين الجزائريين لكتابة تاريخ هذه الأمة وإحياء أمجادها وبطولاتها، اعتمادا على تلك الكنوز المحلية والتي قد تحمل القليل أو الكثير عن الحقيقة المغيبة عن قصد في الأرشيفات الغربية خدمة لمصالحهم، وإهمالا لمصالح هذه الأمة. إنها الذاتية وانعدام الموضوعية التي لطالما تميز بها مفكرو الغرب، والتي أنساق من ورائها الكثير من مفكري ومؤرخي هذا الوطن وصبوا في ركابهم.

إنها محاولة من رجل صادق ووطني يعرف جيدا الغرب ومؤامراته، فكان عمله هذا من أجل إبطال الادعاءات الغربية التي كانت ولازالت تسعى لتشويه تاريخ هذه الآمة. ومحاولة من قبل الباحث لترشيد أبناء الأمة عن البدائل،مع ضرورة الأخذ بالمصادر الغربية، والتعامل معها بمبدأ الشك والحذر. وهذا ما نجده واضحا في مؤلفه هذا الذي اعتمد فيه على كم هائل من المصادر الغربية، الأوربية فاقت في تعداده المصادر العربية. حيث يبرر مأخذه هذا بقلة المؤلفات العربية في هذا الشأن لأسباب شرحها سابقا.ومن المأخذ التي نوردها بعد قراءتنا لهذا الكتاب أيضا :استخدامه لمصطلح المغرب الأوسط أحيانا وللجزائر أحيانا أخرى رغم أن العصر والظروف كانت تفرض مصطلح الجزائر العثمانية ،ربما كانت محاولة منه لإبراز الكيان الجزائري المستقل وان كان هذا الأمر لا يمكن إثباته أو نفيه إلا بعد القيام بدراسة معمقة لهذا الطرح ،كما انه يمكن تفسير

طرحه هذا بطبيعة تكوينه وتأثره بالمدرسة الغربية ،رغم انه ودوما يحاول أن يثبت وطنيته،من خلال دفاعه على هوية هذه الأمة .

اعتمد في تأليف كتابه هذا على نصوص تلك الرحلات لكن لم يعمل على مناقشتها ولم يقف طويلا عند تحليلها، بل الأكثر من ذلك اعتماده على المصادر الغربية فاق كثيرا اعتماده على المصادر العربية، وهذا يمكن تبريره بقلة المصادر العربية في الفترة التي ألف فيها الكتاب مرحلة ما بعد الاستقلال وبسبب تكوينه في المدرسة الغربية.

مع ذلك فإنها محاولة جيدة لإحياء هذا التراث، الذي لا يزال مجهولا بحكم الاستلاب الذي تتعرض له الأمة، ولم تسلم منه حتى الطبقة المثقفة، وذلك لأن التراث العربي الإسلامي ظل ممتدا في الزمان والمكان ردحا طويلا من الوقت.

ففي نظر الباحث فان إحياء التراث المكتوب معيار للتقدم والتخلف وأن الاستعمار الفرنسي عمل على تغييبه، فالفرنسيون عندما دخلوا أرض الجزائر عملوا على إتلاف وإحراق كلّ ما هو مكتوب باللغة العربية، حتى تنسى الأجيال تاريخها وحضارتها، وحتى تلوي أعناق الأجيال الجديدة بقوة، بعيدا عن تراثها المتصل، موجهة لها بنفس القوة نحو سياق الحضارة الغربية المعاصرة، فكان ما كان تشويها للحقائق ونشر الأباطيل وفقا لأغراضها التوسعية، وكانت تلك الممارسات وسيلة لنشر التّخلف الحضاري، وأنهم قدموا لنشر الحضارة والمدنية. بل عملوا على السطو على خزائن المخطوطات، ونقل الكثير منها إلى أوروبا ما خف وزنه وارتفعت قيمته كل ذلك خدمة لأغراض استعمارية.

لا يزال تراثنا المخطوط مجهولا بحكم انعدام الاهتمام للتعرف به، والإهمال أحيانا والبيروقراطية أحيانا أخرى والسعي إلى الربح والشهرة أحيانا أخرى، بحيث صار نشر التراث اليوم عملا تجاريا لدى البعض، وفي الغالب عدم وجود خطة محكمة من لدن الجهات المشرفة على تلك المخطوطات، وانعدام المعرفة الحقيقية بقيمتها وعدم استشارة المتخصصين في هذا الشأن وانعدام منهجية واضحة فعالة وعملية. كلها معوّقات حالت دون الاستغلال الجيد والحسن لتلك الكنوز التي تتعرض للنزيف يوما بعد يوم، بفعل فاعل أو بتأثير العوامل الطبيعية أحيانا أو بفعل الأطماع الشخصية

الضيقة، أو تسريبها للخارج أحيانا أخرى مقابل زيف مادي، ثم لابد من إعادة نظر في التراث الوطني باعتباره انعكاسا للأمة، ووسيلة لمقارعة الفكر الغربي الذي لطالما بنى حضارته وتراثه اقتداء واستنباطا من التراث العربي، وكأني بالباحث يوصي بأن شرف الخوض في التراث المكتوب لا يضاهيه شرف، إذ لا يعرف الأصيل، ولا يعرف قدر أهل الفضل إلا الأفاضل، وتلميع صورة البلد موكول لأبنائه، وعيب البلد والذود عنه مسؤولية الجميع.

التعليقات:

- **التعليق رقم 1**: وبخصوص أنواع الرحلات فقد أسهم الجزائريون إسهاما واضحا في كتابة الرحلات، ولاسيما خلال القرن الثاني عشر، وكانت بعض رحلاتهم نتيجة للحج، وبذلك تكون رحلات حجازية وبعضها نتيجة لطلب العلم، وبذلك تكون رحلات علمية. أما الرحلات الحجازية فهي أكثر فهي أكثر وفرة نسبيا، وسنقسمها إلى قسمين اثنين شعرية ونثرية،...فالحجاز...كانت قطعة أرض طاهرة تضم تاريخ الوحي... والدعوة والأمة الإسلامية.

...أما الرحلات العلمية فالمقصود بها تلك الرحلات التي قام به أصحابها بغرض طلب العلم والزيارة والإطلاع على البلدان عموما، والأخذ عن علمائها وممارسة التجارة أحيانا أخرى ، وحذق لهجات ومعرفة قبائل وشعوب وبلدان وذكر غريب البلاد وأهلها، وذكر عجائب المسموعات من زي أهلها لباسا وحكما وقوتا (سعد الله، ج2 ، 1985 .ص395 وما بعدها).

- **التعليق رقم 2** : هو علي بن محمد التمقروتي، المولود ببلدة تمكروت بدرعة التي عرفت بالعلم والعلماء سنة 941هـ/1534م، ترعرع في بيت علم وجاه ، فجده علي بن محمد رجل علم، حضي بشهرة كبيرة في بلاد العلم، درعة وللعائلة زاوية خاصة بالمنطقة، لذا حظيت العائلة الكريمة بمكانة من لدن السلاطين السعديين فقربوها، وأخذ عن مشايخ منطقة درعة، ثم تصدى للتدريس في الزاوية، حتى طارت شهرته فاستدعي التمقروتي من لدن السلطان أحمد المنصور الذهبي لكي يكون سفيرا له لدى الدولة العثمانية. توفي سنة1003هـ/1594م، ودفن بروضة القاضي عياض بمراكش . (التمقروتي، ،1423هـ/2002م، ص 5وما بعدها).(وللاطلاع اكثر حول سيرة تلك

الشخصيات ينظر ايضا :(عبد الكبير بن هاشم الكتاني ،ط 1422،1،هـ ، 2002م ،ج 1، ص 459 وما يليها).

التعليق رقم 3 : ولد أبو سالم **عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي** (1037هـ-1900هـ/1627- 1679م) هو صاحب الرحلة الشهيرة "ماء الموائد"يعتبر من أبرز أعلام المغرب والمشرق خلال القرن11 هـ/17م. ترجم له عند كل من: (العياشي الرحلة العياشية 2006، ص12). (الزركلي ،2002 ،ص129.بلحميسي: 1981:ص 17)،(الكتاني :2002: 459)

التعليق رقم 4- هو أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن زاكور الفاسي، نسبة إلى مدينة فاس، حيث نشأ في إحدى أعرق بيوتات فاس، وهي أسرة بن زاكور، عرف بذكائه وفطنته، حيث حفظ القرآن الكريم وبعض المتون العالمية في سن مبكرة، الشيء الذي أهله لحضور مجالس بعض الشيوخ الكبار في فاس أمثال سيدي عبد القادر الفاسي، توفي سنة1120هـ/1708م، لديه العديد من المؤلفات في ميادين شتى منها:" الاستشفاء من الألم بذكر صاحب العلم "، و"الحلة السيراء في حديث البراء "، وعنوان النفاسة في شرح ديون الحماسة"، "ورحلته المسماة" "نشر أزاهير البستان" التي تمزج بين وصف جغرافي وتاريخي للمناطق التي يمر بها، ومن الشيوخ الذين لقيهم، ومجمل ما ستفاد من رواياتهم ونصوص إجازاتهم .(ابن زاكور 2011، ص ص 13-17، 24-29.).

التعليق 5 : أبو القاسم الزياني:1249/1147.الموافق ل 1833/1734، اشتهر بمؤلفه الترجمانة الذي جمع فيه أخبار العالم وعلومه. قام بعدة رحلات، واندمج في الخدمات السلطانية بالمغرب واسطمبول، وعرف نوائب الدهر مزيد من التفاصيل يراجع (بلحميسي ، ص ص20-22. الزياني، 1991، ص ص35-37).

التعليق رقم 6: الإجازة العلمية: هي شهادة علمية لا ينالها الطالب إلا بعد طول ملازمة للشيخ والأخذ عنه بالحال والمقال، حيث يأمر الشيخ بكتابه الإجازة له رافعا له سنده ويضع القاضي خط يده والخاتم معلما بثبوت الإجازة من الشيخ. (حجي: 1976، ص256).

قائمة المصادروالمراجع:

1 /ابن زاكور الفاسي محمد بن قاسم: نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، المعروفة برحلة ابن زاكور، تح : مصطفى ضيف ومحفوظ بوكراع، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر ،ط خاصة، 2011.

2/بلحميسي ،مولاي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الثانية ،1981.

3 / بلحميسي مولاي : موقف المؤرخين الفرنسيين من الجزائر في العهد العثماني ، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر ، ع5 ،السنة 1988/1408السنة الثالثة.

4 /بوضرساية، بوعزة: رواد المدرسة التاريخية الجزائرية: دار الحكمة، الجزائر عاصمة الثقافة العربية ط 1. 2007م.

5/التمكروتي علي بن محمد ، النفخة المسكية في السفارة التركية، تق وتح : عبد اللطيف الشاذلي ، المطبعة الملكية ، المغرب،1423هـ/2002م.

6/ حجي محمد: الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين دار المغرب الرباط1976.

7/ خدوسي رابح وآخرون : موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين ، منشورات الحضارة ،بئرتوتة،الجزائر، ج1، ط2014.

8/ الزياني، أبو القاسم،الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تح و تع:عبد الكريم الفيلالي، دار النشر المعرفة ،المغرب، 1991.

9/ الزركلي خير الدين: الاعلام، ج4، دار العلم للملايين، بيروت، ط15، 2002م.

10/ سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 ، م. و. ك. الجزائر 1985 .

11/ الشوابكة نوال عبد الرحمن: أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري ، دار المؤمون للنشر والتوزيع عمان ،المملكة الاردنية الهاشمية ،2007م

12/العياشي عبد الله بن محمد: الرحلةالعياشية(ماء الموائد). ج2، تح وتق سعد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، ط1 ،2006.

13/ الكتاني عبد الكبير بن هاشم : ترجمة ابن زاكور وبيته عند عبد الكبير بن هاشم الكتاني : زهر الأس في بيوتات أهل فاس ، تحقيق علي بن المنتصر الكتاني . منشورات مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ج 1، ط 1، 1422، هـ، 2002م.

14/ الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير : فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ،ج 1، باعتناء إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي، تونس ، ط 4 ، 1435 هـ . 2013 م .

15/المنجد في اللغة والأعلام، ط30، دار المشرق، بيروت1988.

16/ الوزان الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج 2 ، ط1983،2.